

المقبر

ظلمات عصر الظلمات

كل من التي نظرة اجمالية على تاريخ القرون الوسطى والقرون الحديثة في هذه البلاد يوقن بان القرون الاخيرة اي القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر كانت اشقى العصور على هذه البلاد لاحكم فيها الا لل قوة لاعدل يحجبها ولا علم ينهضها وخصوصاً في الايام التي سادت فيها حكومة الاقطاعات وصاد معها جيش الانكشارية (بيكي جري) او العسكر الجدد فكل ما تراه عينك في دمشق مثلاً من بيوت ضيقة متلاصقة وارتيحة واطئة واحياء لا منفذ لها وقصور ومدارس سيف الضواحي خربة انما نشأ من اعتداء هذا الجيش على افراد الرعية المسكينة وما نجح من ايديهم يتناوله الظلمة من الحكام ويصادرونه ويستصفونه هنيئاً مريئاً لا وازع يززع ولا ادارة منظمة : احكام في الدمار مسيطرة وقواعد في السياسة معسلة وآراء في جلب المصالح ودرء المفاسد مخلطة مغلطة .

ولقد وقع الينا مخطوط نافع^(١) اورد فيه مؤلفه بالعرض في جملة قصائده بعض ما شاهده في عصره من الكوائن فاحببنا نقلها الى هنا دلالة على القضية التي قررناها آنفاً ولنكون متممة لتاريخ هذه الحاضرة . وهالك ماورد في هذا المعنى بمناسبة مدحه لاحد حواشي سليمان باشا ابن العظم (والي الشام اذ ذاك) قال : « وافق لهذا الممدوح قصة من غرائب القصص وهي انه سعى في خلاص جماعة من اهل حيه وغيرهم من القتل وفداهم بنفسه ودافع عنهم عند والي الشام بما استطاع وسلموا من الهلاك بسبب مدافعتهم

(١) هو ديوان النصائح والانوار اللوائح لمؤلفه محمد الحافظ النجار من اهل القرن الثاني عشر وهو من خزنة كتب غالب بك الزاقي احد اعيان هذه الحاضرة وفضلاتها

عنهم وفر قوم من دمشق خوفاً من واليها ووقع الوالي القتل والنهب بقوم آخرين ظفر بهم في دمشق ثم ان الوالي خرج من دمشق اميراً بقافلة الحج وخرج معه هذا المذكور حاجاً وموالياً ما عليه من خدمة السلطان في طريق الحاج فلما وصل الامير والحاج الى المزيريب رجع اولئك النفر الذين فروا من الوالي بعد ان ارسلوا مكاتبة الى جبرائيل هذا الذي سعى في خلاص اكثرهم من القتل تشمل تلك المكاتبة على انهم في ليلة كذا يرجعون ويدخلون دمشق بتصد انتهاب دار هذا المذكور وقتل من يظفرون به من اهاليه وقراباته فاجابهم كل من كاتبوه بذلك بالسمع والطاعة وانهم سيكونون لهم عضداً وعوناً على ما يبتوا عليه وارادوه من سوء بهذا الامر الذي عزموا على فعله فلما كانت الليلة الموعودة دخل اولئك النفر الفارون دمشق ومعهم نفر من النصارى والدروز والاشقياء اعداء الدين والمسلمين ولما وصلوا الى القرب من الدار المقصودة بالسوء تلقاهم الناس بالترحيب وتحزب معهم غالب الناس من اهالي ذلك المحل حتى بلغوا العدد الكثير فلما قربوا من المحل ترفع اهله في منازلهم وفر من كان في الدار المقصودة من كبير وصغير طالبين للنجاة بانفسهم فلما وصل اولئك النفر المغضوب (عليهم) ومن معهم من المنافقين الذين انضموا اليهم كسروا الابواب وهجموا على الدار وانتهبوا وضربوا وافسدوا افساداً ماسع مثله واصبحوا ماكثين في دمشق لايهابون احداً فخرج اليهم نائب الوالي والاعيان والموالي فتلقوهم بالحرب والضرب وقتل جماعة وجرح آخرون ورجع النائب ومن معه منهزمين ومكث اولئك النفر الاشقياء بدمشق ريثما بلغوا اربهم من سلب واغتصاب وتهكم وتحكم لا يردم عن ذلك احد ولا يهابون احداً»

قال : « ولقد حقق الله تعالى جميع ما نطقت به هذه القصيدة من الظفر باولئك النفر المفسدين والطائفة المعتدين المارقين من الدين على يد وال آخر غير ذلك الوالي المذكور في ترجمة هذه القصة قد عينه السلطان وولاه دمشق لاجلهم بسبب فتنة اضرموها في الشام نارها واثاروا غبارها وافسدوا افساداً فظيماً فقتلوا وخربوا واستلبوا وانتهبوا واحرقوا الدور والاماكن وحركوا من الشرور كل ساكن وتجاهروا بالفواحش وارتكبوا كل امر مخالف للدين فاحش واعلنوا القنطري في شهر رمضان على رؤوس الاشهاد وتعطلت الاسواق والمعاملات بسببهم في دمشق قريباً من سنة لانقام جمعة ولا يسمع اذان ولا يفتتح جامع ولا يمكن احد ان يخرج من منزله لاجلهم ولا لغيرها لفسادهم وفسادهم وتعددهم على الخاص والعام وانما كان سبب تمكثهم من ذلك عدم وال في الشام فان

واليهما كان قد خرج منها الى الحج اميراً في رجوعه من الحج عارضه العربان في اثناء الطريق ففر منهزماً بعد ان اعجزوه وانتهبوا قافلة الحاج باسرها بعد ان كانوا انتهبوا جردة الحاج وقتلوا من الجردة والحاج الجمل الفقير... فهذا كان سبب تمكنهم من اقامة الشرور والفتن فجاءهم بعد ذلك هذا الوالي المذكور ثانياً وقتل منهم من قدر عليه وفر منهم من فر منهزماً وسلب دورهم ومتاعهم واثاثهم ووجه اخبارهم وتركهم اذل من اليهود واحقر من الذباب واوهن من الكلاب ولحق دمشق واهلها من ذلك الوالي وحاشيته وجنده اسوأ السوء بسبب قيامهم على اولئك الاشقياء وانتهيت غالب المنازل في دمشق وقتل خلق كثير من البراء وتوطن هذا الجند الكثير من دور الناس واخرجوا اهلها منها عنفاً وجبراً وقسراً وظهر من اتباع هذا الوالي ما انسى اهل دمشق ما كانوا فيه من الضنك والشدة قبل قدوم هذا الجند اليهم... واعقب مجي هذا الوالي الى دمشق في دمشق ضيق وشدائد وشرور وظلم وجور وعسف وتعد واحتقار لاهل دمشق من شدة فظاظتهم وغلظتهم وكان فيهم من النصارى والرافضة مالا يحصى عدده وختم ذلك بزلزال في دمشق ونواحيها ورجفات زعزعت الجبال وردمت الدور في غالب الاماكن وهدمت كثيراً من المساجد والمعابد والمنارات وعند كتابتي لهذا المحل كانت مكثت في دمشق خمسة واربعين يوماً وقتل اذ ذاك تحت الدم خلق كثير وخرج غالب الناس من منازلهم وتركوها خالية وتوطنوا البساتين والجبانات... وقال في مكان آخر: «قد تقدم في هذا الديوان ذكر بعض ما وقع في دمشق من الفتن والحزن والشرور والغلاء والظلم وغير ذلك مما مر وتقدم وكل ذلك قبل تاريخ سنة الف ومائة وسبعين وها انا اذكر ما وقع واتفق لدمشق واهلها في سنة سبعين وما بعدها من العظائم والحوب والازمات والزلازل والرجفات وماتاً في من ذلك من خراب الدور والمنارات والجوامع وما كان في تلك الايام من ظلم وجور وعسف الى ان تداخلت الدواهي والبلايا بعضها في اثر بعض حتى كانت آخر ذلك الطاعون الذي انسى ما كان قبله مما فسد الاديان وبهالك الابدان ويشيب الولدان وهنا اورد المؤلف ارجوزة مطولة في وصف تلك الحزن قال فيها:

لما تقضت عشرة من صومنا بحرة
قامت طغاة فجرة سيف شامنا المطهرة
واضرموا نار الفتن واظهروا خافي الاحن

واوقعونا في محن	وكدروا منا الفطن
ومذ رأيت الثننا	ثارت وقلمت علنا
وكل مكروه انا	وكل سوء وعنا
ناديت رباً ذا منن	بعد القروض والسنن
وجنح ليل قد سكن	وفيه قد فر الوسن
وقلت قول المنجي	وطالب للفرج
وهارب من حرج	يا من اليه التجي
يادافع البلاء	يا عالم النداء
ياسامع الدعاء	يا كاشف اللاؤاء
خلص اناساً ظلموا	من بطش قوم ظلموا
عن الرشاد قد عموا	ومن سداد حرموا
وعجل انتصارا	واهلك الاشرا را
وايد الابرار	وسدد الاخيارا
وهت ربوع الشام	من زمرة طغام
وعصبة لثام	خذوا من الحرام
وفرقة بخار	طاغية اشمرار
قد ازعجوا الدراري	باقبح الضرار
لم يرحموا صغيرا	لم يستحوا كبيرا
لم يتركوا تقيرا	نهبا ولا قطميرا
واعلنوا الفساد	واذهبوا العبادا
واخربوا البلادا	واحرموا الرقادا
وحللو الحراما	واعملوا الصياما
وقهروا اليثاى	وفضحوا الايامى
واظهروا الاسرافا	وقتلوا الاشرافا
وضيعوا الانصافا	واكثروا الاخلافا
وشتموا الائمة	وكذبوا الائمة
وهدموا الاوطانا	واورثوا الهوانا

وشيعوا الامانة	وشهدوا الحياة
وحرّموا الديانة	وقارتوا العصاة
وظلموا الحكماء	وابطلوا الاحكاما
واكثروا السرما	واغشوا الكلاما
مدوا يدهم الفجائع	منوا مدى المراجع
وقتلوا سيدهم الخلع	لساجد وراصع
وقاموا الازية	واعظموا الرزية
واولعوا البلية	واقفلوا البرية
واقفلوا المساجدا	واقفلوا المعابدا
واكثروا الفاسدا	لغرموا المعابدا
وعظموا المنايا	وحضروا الاكابر
ودمروا الاصاغر	واشبهوا المناكر
وقصدوا اذانا	واسكتوا الآذانا
وتابعوا الشيطان	وخالفوا السلطان
وبات كل عالم	من جعل وعالم
وقاعد وقائم	بالتم كالزائم
وكل سوق سكر	وقل بيع وشرا
وقام سوق الاقترا	ودام هذا الشيرا
يسود فينا مدة	حكمت ليالي الردة
فمرزل سيدهم شدة	ومحن محنة

والارجوزة طويلة وهي نزل هذا الخط وقعت في نهر خرس ورقفت بالخط الدقيق
 المدمج قال في آخرها : « وجميع هذه الشكاية انما هي مما وقع من الشرور والفن سيدهم
 ستة الف ومائة وسبعين في دمشق وما جرى وانفق خارجها من نهب الجردة سيدهم ستة
 احدى وسبعين ثم ما وقع فيها من النهب الخج وما حصل اذ ذلك من الفساد والافساد
 من طائفة الاغراب والافراد ولما انتهت الجردة ثم مات اميرها ثم انتهت الخج وانهمز
 اميره ورجع الى دمشق من سلم من القتل منهم ما سلخوا وكانت نار الفتنة لم تزل تارة

في دمشق بين طائفة القول^(١) وطائفة الينكشارية من مضي عشر ليال من شهر رمضان والقول اذ ذاك محاصرون في القلعة فلما اقبل المنتهبون من الحجاج الى دمشق خرجت طائفة الينكشارية يتلفون المنهزمين والمنتهبين من الحجاج فكل من ظفروا به وكان من القول قتلوه واخذوا ما يجدونه معه من متاع اودابة او غير ذلك حتى انه قد بلغني انهم ظفروا باحد القول خارج دمشق فقتلوه شر قتلة واخذوا ما كان معه ثم احرقوه بالنار واستمرت الشرور والفتن قائمة في دمشق وهي اذ ذاك خالية من وال حيث ان امير الحاج لما انهزم في اثناء الطريق استمر منهزماً ولم يدخل دمشق فبقيت بلا وال ولا حاكم .

ولما بلغ السلطان مصطفى اخبار ما تقدم ذكره من انتهاب الجردة والحج وما في دمشق من الفتن والهرج وان طائفة القول محاصرون في القلعة ساء ذلك وعين عبدالله باشا الشنعي وامره على دمشق وعلى الحج وانه يستقصي الخارجين عن امره والمنعصبين على القول ويقتلهم ويرسل برؤوسهم الى الباب العالي والزمه ان يباشر اصلاح طريق الحاج بما امكنه نجاء عبدالله المذكور والياً على الشام واعمالها واميراً على الحاج ودخل دمشق في اوائل سنة احدى وسبعين وجاء معه بجند الغالب منهم نصارى واعاجم . فلما قرب من دمشق تحزبت الينكشارية وتجمعوا في جهة الميدان والقبليات والحقلية ووقع منهم اساءة ادب في حق الوزير وجنده وانتهبوا من نزل منهم بالقرب من محلهم الذي تحصنوا فيه ثم بعد يومين من ذلك نزل من الينكشارية نفر الى جهة باب الجالية وتلك النواحي فظفروا باثنين من الجند فبطشوا بهما فقتل احدهما وجرح الآخر فبلغ الخبر الى الوزير قاصر من عنده من الجند ان يذهبوا الى المحل الذي فيه الينكشارية ويقتلوا من يتقدرون عليه ويأمرؤا من قدروا على اسره فخرج الجند متوجهاً الى جهة حارة الميدان وتلك الجهات فلما وصلوا الى وجوه المطلوبين وتوجهوا فرت طائفة الينكشارية طالبين البراري والقفار فتبعهم نفر من الجند ساعة من نهار وقتلوا منهم عدداً قليلاً ورجعوا عنهم واستمر اولئك هاربين ثم ان الجند اخذوا في قتل من راوه كائنات من كان وشروعوا في النهب والسلب فانتهبوا غالب المنازل والخوانيت من حدود الحقلية الى باب الجالية واستمر ذلك من الضحوة الكبرى الى وقت العصر والجند يأتون بالروس الى حضرة الوزير فقتل في ذلك اليوم من الرعايا العدد الكثير وانتهب المتاع والمال الغزير الى ان دارك

(١) هم عسكر « القبولى »

الله تعالى باللطف بعد ان اخذوا العدد الكثير من الرعايا البرآء وسجنوهم ووضعوا القيود
والاغلال في ايديهم وارجلهم واعناقهم ولما بلغ الوزير ان هؤلاء النصارى والاعاجم
حصل منهم التعدي في القتل والنهب خرج اليهم ولاهمهم على ذلك واسرمهم بالكف
عن ذلك وجمع ما قدر على جمعه مما انتهبوه ووضع في المساجد وارصد له من يحرسه
يغضب المنتهين ان يأتوا وينظروا في الامتعة فمن وجد شيئاً من متاعه اخذه ففعلوا ذلك
فما حصلوا على عشر معشار ما انتهب من متاعهم واموالهم واطفأ الله تعالى نار الفتنة ثم
خذ النصارى والاعاجم الذين هم من جند هذا الوزير بتحكيمهم في اهل دمشق بالسلب
والاستحلال والشم والقتل والفساد والقتل حتى اشاعوا الفواحش وتجاهروا بازنا
يشرب الخمر وحتى تعدوا الى ان يخرجوا اهل المنزل من منزلهم ويسكنون فيه وكان
الانسان في تلك الازمان لا يأمن على نفسه اذا خرج من منزله بعد المغرب ومتى
خرج أصيب بنفسه او ماله . وهذا الذي ذكرته هنا هو الذي اشترت اليه سيفه
الارجوزة المتقدمة من الشكاية مما وقع في دمشق من الرزايا سنة احدى وسبعين بسبب
ما وقع من طائفة الدول والينكشارية من الفساد والافساد ثم بسبب ذلك ما وقع بعده
من طائفتي النصارى والاعاجم الذين هم من جند الوزير المذكور سلب الله تعالى الزلازل
والرجفات فوق الردم في المنازل والجوامع والمنارات ومات تحت الردم خلق كثير وقبل
ان تسكن تلك الرجفات والزلازل ارسل الله عز وجل الطاعون فأخلى البيوت وفرق
الجوع وشتت الشمل وكدر العيش »

وقال بعد ان مدح عام اثنين وسبعين ومئة والف : « وقد كان اهل دمشق سيفه
ناية الوجع ونهاية الفرق والفتلى من جهة الحاج من شر الاعراب الاشقياء قياساً على
ما وقع منهم من الشر في العام الذي قبل هذا العام وكان الوجع الواقع من اهل دمشق
في محله حيث ان العرب بالغوا في التعدي وغرروا واعنادوا وسلبوا الاموال وتكديروا الاحوال
ولكن الله يؤيد بنصره من يشاء فان امير الحاج الذي هو عبد الله باشا المذكور وقع بينه وبين عرب
حرب شر من اجل مال الصر المرصود للعرب من جهة السلطان فتوعدوه بالشر فاحتال عليهم وقتل
العرباء هم وفر الاذناب منهم ومضى الامير والحاج مسلمين غائبين ولما رجع الامير بالحاج رجع
على طريق آخر بعد ان تجهجت العربان بين الحرميين بتصد المعارضة للحاج فغضب الله
آلامهم ولطف سبحانه وتعالى بعباده المؤمنين وسلمهم من غوائل الاشقياء الحرميين
وبلغنا ذلك كله بعد هلة عام اثنين وسبعين بايام فلاجل ذلك خصصت هذا العام بالمدح

ايضاً فقد كان الناس قبل هائمه يشكون من قلة النيث فلما استهل اناث الله عز وجل العباد واحيا البلاد والا فان الدواحي الواقعة فيه وفي ايامه بدمشق وقراها لم يسمع بمثلها من فساد الجند وفساد العساكر وظلم رئيسهم وجور حواشييه وعسفهم .
وعاد المؤلف فكرر احوال ما وقع سنة سبعين وما بعدها وقد دام ما وقع من اذى الجند السابق والجند اللاحق الذي جاء مع والي الجديد من عشر ليال من شهر رمضان الى جمادى الاولى و « القول مخشرون في قلعة دمشق والينكشارية ومن تبعمهم من الحشرات حول القلعة والحرب قائمة على ساق وقدم وقد اخرج الجند الجديد او بعض الناس من دورهم وتوطنوها ومع اختطافهم لبعض النساء والغلمان جهاراً من غير مدافع لذلك ولا مانع حاكين على جميع اهل الشام بالكفر وبانهم قوم يزيد مصرحين بذلك »
هذه غموضات من عصر الظلامات والظلمات والكتابات نسخة كتبت بقلم مؤلفه وشعره متوسط حسن بالنسبة لعصره عصر الانحطاط في كل شيء كتبها في ذي القعدة سنة الف ومائة وثلاث وسبعين

الالفاظ السريانية في العربية العامية

اللغة السريانية من امهات اللغات السامية وهي من اصول اللغة العربية ولو بحثت في اصول الالفاظ العربية لرأيت بعضها سريانياً في الاصل كما دخل اليها الفاظ كثيرة من العبرانية والحبشية والفارسية على نحو ما حققه المحققون من الباحثين في اصل اللغات .
كان للسريانية شأن عظيم حتى قال بعضهم ان السريانية كانت لسان آدم ابو البشر وتعدى بعضهم فادعى ان لسان اهل الجنة السريانية وذبحت^(١) عصابة من العلماء الى ان السريانية اصل لغات الآديين بدليل ماورد في اسفار موسى من تسعيات تقرب كل القرب من الالفاظ السريانية معنى ومبنى وعلى كل فعي بكر لغات النوع الانساني وهي من اعرقهن في القدم واول من انطلق بها لسانه على مانع ارام بن سام فتتافلها الآراميون اخلافه ممن اطلق اسمهم حيناً من الدهر على السوريين او السريان الذين عمروا
(١) الدوائر وبقايا اللغة السريانية في اللغة العامية العربية لمؤلفها القس يوسف حبيقة السكنتاوي بمطبعة الارز في جونية سنة ١٩٠٢ والمطبعة اللبنانية سنة ١٩٠٤ وهي جزآن صغيران